بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 4 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:18\10\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

بعد وضوح ما تقدم بحثه قبل الشروع في آيات هذه السورة، نشرع لبحث الآية الأولى.

الآية الأولى: قال تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أتى عَلَى الْإِنْسانِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾

لكي يكتمل البحث في هذه الآية المباركة لابد أن نقف عند محطات فيها:

المحطة الأولى: كلمة ﴿هَلْ﴾ من الواضح لكل ناطق باللغة العربية وعارف بها أن هل من أدوات الاستفهام. لكن يظهر من كثير من المفسرين أن ﴿هَلْ﴾ في سورة الإنسان و﴿هَلْ﴾ في سورة الغاشية ليست للاستفهام، بل هي بمعنى قد. فتكون الآية (قد أتى على الإنسان) فهل لو كانت استفهامية تكون جملة إنشائية، ولو كانت بمعنى قد تكون الجملة خبرية.

الفخر الرازي أراد أن يبرهن على ذلك، برهانه الثاني برهان عقلي، وحاصله: أن الاستفهام الذي هو عبارة عن طلب الفهم، طلب الفهم فرع الجهل، ولا يصدر الاستفهام من الباري تبارك وتعالى إذا لم يكن حكاية عن غيره على وجه الاستحالة؛ لأن لازمه نسبة الجهل إلى ساحته المقدسة تعالى عن ذلك علواً كبيراً. إذاً لا يمكن أن نحمل هل هنا على معنى الاستفهام.

البرهان والدليل الآخر على ذلك: تمسكوا بكلام لأبي بكر[1]، أنه بعدما سمع تلاوة هذه الآية لأول مرة فعلق عليها بهذا التعليق، قال: يا ليتها كانت تمت فلا نبتلي.

[1] اختلفوا الأكثر أنه لأبي بكر وبعضهم قال لعمر.

بداية معنى هذه الجملة أنه ﴿هَلْ أتى عَلَى الْإِنْسانِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ فيتمنى أنه يبقى الإنسان شيئاً غير مذكور، فإذا بقي هكذا وتم الأمر على هذا المنوال ما كان جاء آدم عليه السلام وما كنا ولدنا وبالتالي لا نأتي، فرار من المسؤولية.

وجه الاستدلال: يشرحه لنا الفخر الرازي، لو كانت هل الاستفهامية فينبغي أن يجاب عنها بلا أو نعم، ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ إما نقول نعم أتى عليّ وإما نقول لا لم يأت عليّ. لا أن يجيب أبي بكر بهذا الجواب.

على تقدير صحة هذا الاستدلال لا يؤثر أن يكون القائل هو أبو بكر أو غير أبي بكر؛ لأنه لا نريد أن نستدل بقول شخص حتى نقول هذه ليست رواية وليست عن معصوم، بالنتيجة هذا عربي تعامل مع هذا النص على أساس أنه ليس للاستفهام، ولم يعترض عليه أحد من العرب، فإذاً تكون هل ليست للاستفهام.

الكلام عندي في هذه المسألة أنه لا نستطيع أن نجزم من كلماتهم تلك أنهم بأجمعهم يعتقدون أن هل في اللغة العربية بمعنى قد ومرادفة لقد. نعم في كلمات بعضهم يوجد ما يدل على ذلك. لكن إذا رجعنا إلى نصوص قديمة لمفسرين يهتمون باللغة، نجد مثل الفراء يقول في كتاب معاني القرآن: هل قد تكون جحداً وقد تكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك قد تقول فهل وعضتك، فهل أعطيتك؟ تقرره بأنك قد أعطيته ووعضته، والجحد [يعني الإنكار] أن تقول وهل يقدر واحد على مثل هذا؟ أي لا يقدر.

هذا النص نقف عنده: في علوم البلاغة فصل بين ثلاثة أنحاء من أدوات الاستفهام، الهمزة بحثوها لوحدها، هل بحثوها مستقلة، وسائر أدوات الاستفهام بحثوها على نحو الاستقلال. وعادة في كل أدوات يكون هناك ما يسمى بأم الباب، ككان وأخواتها وإن وأخواتها، فيثبت لكان لا يثبت لغيرها، كل ما يثبت لغيرها يثبت لها إذا كانت أم الباب، فهمزة الاستفهام هي أم باب الاستفهام؛ لذا تستعمل للتصور والتصديق، لها غير الاستفهام ثمانية معاني، سائر أدوات الاستفهام غير الهمزة وهل لا تستعمل إلا للتصور، وليس لها إلا معنى الاستفهام.

هل توسطت بين الهمزة وبين سائر أدوات الاستفهام، فلم تدل على كل المعاني، فيريد أن يقول الفراء: أخذت من بين معاني همزة الاستفهام فقط معنيين، وهما التقرير والانكار.

وهنا يوجد مبنيان:

المبنى الأول: مبنى القدماء، أن هذا من الاستعمالات المجازية، وهذا قرأناه في علم الأصول عند كثير من القدماء من علماء الأصول، وليس فقط في أدوات الاستفهام، بل في أدوات التمني. ولذا أن يكون المراد النهائي، وهو الذي يعبر عنه باصطلاحنا الحاضر بالمراد الجدي، للآية التي فيها استفهام هو طلب الفهم، فهذا يستحيل أن يصدر من الباري سبحانه وتعالى، كما قال الفخري الرازي. لكن هذا لا يعني أن الأداة استعملت مجازاً. كذلك في التمني عندما تأتي كلمة ليت على لسان الباري تبارك وتعالى وليست حكاية عن أحد فلا يكون المراد النهائي هو التمني؛ لأن التمني فرع العجز، وهذا لا يقال في حقه تعالى، فلابد أن يكون المراد النهائي معنى آخر. لكن هذا الشيء وأن نلتزم بالمجازية شيء آخر.

فإذاً المبنى المعروف بين القدماء هو هذا، وهذه هل لا يريدون أن يقولوا بأنها مرادفة لقد، أي: هل مثل الحروف التي يذكرها ابن هشام في المغني، يذكر لها معان متعددة، استعمالات حقيقية متعددة، فتكون هل مشترك لفظي بين الاستفهام وبين قد. ولكن الأمر ليس كذلك، هل لم توضع إلا للاستفهام، القدماء قالوا لم توضع إلا للاستفهام، ولكن تستعمل مجازاً في غيره كما في هذه الآية المباركة.

هذا التركيز على هل أنه في سورة هل أتى وفي سورة الغاشية؛ باعتبار أنهم يريدون أن يخرجوا عن تحت سيطرة همزة الاستفهام، كان المتعارف أن الخروج عن الاستفهام فقط في الهمزة، والفراء يريد أن يقول: هل تستعمل، لكن ليست بسعة الهمزة، بل تستعمل في الإنكار عبر عنه بالجحود، وفي التقرير عبر عنه بالإخبار؛ لا أن هل في اللغة العربية مشترك لفظي بين الاستفهام وبين قد. وإن كان يظهر ذلك من بعض المفسرين. وهذا على رأي القدماء.

أما على آخر النتائج التي توصل إليها المحققون من علماء الأصول: هو أن هذه النظرية باطلة، وحملوا كلام علماء البيان على الخلط بين المعنى المستعمل فيه اللفظ وبين الدواعي، فهذه المعاني الثمانية للاستفهام، والمعاني النيف والعشرين بصيغة الأمر، ومعاني التمني الأخرى، هذه ليست معاني استعمل

فيها اللفظ، بل هي دواعي لإنشاء معانيها التي وضعت له، ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾[2] الهمزة للاستفهام، استعملت في الاستفهام، والذي يلزم منه المحذور العقلي أن يكون الداعي هو طلب الفهم، أن الباري يريد أن يفهم، هذا فيه محذور عقلي، أما أن يستعمل في الاستفهام لداع ولغرض غير طلب الفهم، فهذا ليس فيه محذور، فأنشأ الاستفهام واستعمل الهمزة في الاستفهام ليجعل عيسى عليه السلام يقر أمام قومه ومن بعث إليهم.

ففي هذه الآية التي نبحث عنها هل للاستفهام، لكن أريد منه الداعي لإنشاء هذا الاستفهام وهو التقرير والإخبار، الداعي النهائي هو التحقيق، لذا استعملوا معنى قد، لا أن لفظة هل مرادفة للفظة قد.

[2] المائدة 116